الغضب الناعم
قراءة في شعر فدوى طوقان

د٠ إبراهيم عبد الفتاح رمضان (*)
أ٠د٠ عبد الرحمن بن صالح بن عبد الرحمن الخميس(*)

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فهذه دراسة تدور حول مفهوم الغضب، وأمثلته من الشعر العربي الحديث؛ وتحديدًا من شعر الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان التي بدا في شعرها لون من الغضب يستحق الوقوف عليه. وتعتمد الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وتنطلق من تساؤل مشروع مؤداه: هل غضب المرأة، في الشعر، مثل غضب الرجل؟ لقد ألف المتلقي أن تصدر هذه الشحنة العاطفية من الرجل؛ فهو الذي إذا غضب ملأ الدنيا، فأرغى وأزبد، وقتل وطعن، وأقام الدنيا ولم يقعدها حتى يثأر ممن غضب عليه، وما هو مبثوث في الشعر العربي من التعبير عن الغضب كثير من مثل قول عمرو بن كلثوم(١):

(*) أستاذ البلاغة والنقد المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها – كلية العلوم والآداب بالرس – جامعة القصيم.
(*) أستاذ الأدب والنقد في قسم اللغة العربية وآدابها – كلية العلوم والآداب بالرس– جامعة القصيم.

(١) الزوزني، الحسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، تقديم: عبد الرحمن المصطاوي، ط٢، دار المعرفة، دار المعرفة، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٤م ، ص ١٨٦.

ألا لا يجهلـــــن أحـــــد علينـــــا فنجهــل فــوق جهــل الجاهلينــا

وقول بشار [١]:

إذا مـــا غــضبنا غــضبة مــضرية هَتَكْنَا حِجَابَ الــشَّمْسِ أوْ تمطــر

وتهدف الدراسة إلى استجلاء غضب النساء، في ميدان الشعر، ومحاولةً التعرف على خصائص غضب المرأة الذي بدا في شعر فدوى طوقان التي مرت حياتها بمرحلتين؛ الأولى: مرحلة الشعر الذاتي الرومانسي. والثانية: مرحلة المقاومة. وستحاول، كذلك، أن تربط بين غضب الشاعرة ومقاومتها بعد أن احتل اليهود بلدها فلسطين، وشردوا أهلها، واعتقلوا شرفاءها، ودنسوا أرضها؟

ولم يصل الباحثان إلى دراسة عنيت بهذه الفكرة، الأمر الذي يزيد من أهميتها، وكل ما وصلا إليه دراسات قد تتقاطع مع هذه الدراسة دون أن تجيب عن سؤالها الأساس وتحقق هدفها المنشود. ومنها دراسة (مهري)[٢]، التي اعتمدت فيها المنهج الوصفي، وتناولت فيها نضال الشاعرة –في شعرها– باتجاهاته المختلفة؛ الوطني، والقومي، والإنساني. وقدّم (حيدري)[٣] دراسة اعتمد فيها المنهج الوصفي التحليلي، وعني بالخطاب الشعري الأنثوي بين طوقان وفرخزاد، وانتهى إلى أن الشاعرتين اعتمدتا على رؤيتهما الأنثوية

---

(١) ابن برد،:. بشار، ديوان بشار بن برد، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، ط١، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٦هـ–١٩٦٦م، ١٦٣/٤.

(٢) مهري، رقية، فلسطين وتجلياتها في شعر فدوى طوقان المقاوم، مجلة فصلية دراسات الأدب المعاصر، جامعة آراد الإسلامية، كرمان، ع١٠. ١٤٣٢هـ، ص ١١٣–١٢٤.

(٣) حيدري، محمود، الرؤية الأنثوية في الخطاب الشعري: دراسة مقارنة بين فدوى طوقان وفروغ فرخزاد، مجلة اللغة العربية وآدابها، ع٤. ١٤٣٤هـ، ص ٥–٢٩.

للحياة، ومن ثم بدا نضالهما الصادق للذود عن المرأة والوقوف في وجه السلطة الذكورية. وجاءت رسالة (ابن شوية[١] في شعر الشاعرة الذي تميز بتفاعله مع الواقع، وخصصت الباحثة الفصل الثاني لدراستها التطبيقية التي انتهت فيها إلى عناية الشاعرة بموضوعات الطفولة، والمرأة، والأرض، والغربة. واعتمدت (أبادي ليلى)[٢]، المنهج الوصفي التحليلي، وذلك في دراسة هدفت إلى استجلاء الظواهر المشتركة في شعر المقاومة عند الشاعرتين طوقان وطاهرة زادة؛ سواء في الأفكار والمعاني أو اللغة.

وقد اقتضت هذه الدراسة أن يمهد لها بالحديث عن مفهوم الأدب النسوي، ومفهوم الغضب بين الأدب وعلم النفس، وتحول شعر فدوى طوقان بين الرومانسية والوطنية. ثم تلاه التفريق بين الغضب والعنف، ووسائل التعبير عن الغضب في شعر الشاعرة، وأبرز الملامح الفنية في غضبها. وتبعت ذلك خاتمة أوجزت نتائج الدراسة وتوصياتها. والله ولي التوفيق.

[١-١] مفهوم الأدب النسوي:

يلح سؤال مهم: هل يقصد بالأدب النسوي أو النسائي: كل ما تكتبه المرأة من فنون الأدب؟ أو يقصد به الأدب الذي يُكتب للنساء، ويتحدث في قضايا

---

(١) ابن شوية، أوريدة، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م، تفاعل الشاعر والواقع في شعر فدوى طوقان: دراسة لنماذج مختارة، رسالة ماجستير مقدمة لقسم الأدب واللغة العربية بكلية الآداب واللغات في جامعة محمد خيضر بسكرة، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

(٢) أبادي ليلى، أصل ركن، المقاومة وعناصرها في شعر فدوى طوقان وطاهرة صفار زادة- دراسة مقارنة بين الأدب المقاوم الفلسطيني والإيراني، ع١١، مجلة الميدان للدراسات الرياضية والاجتماعية والإنسانية، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، ع١١، ٢٠٢١م: ص ١-١٤.

المرأة بوجه عام؟ سواء أكان الكاتب رجلا أم امرأة ما دام قد جعل موضوعه الحديث عن المرأة وقضاياها؟

وما من شك في أن لكل من الرأيين السابقين أنصارًا؛ فيعرف توفيق[١]، والسيوف[٢] الأدب النسوي بأنه: "الأدب المرتبط بحركة نصرة المرأة، وحرية المرأة، وبصراع المرأة الطويل التاريخي للمساواة بالرجل". وهناك من يرفض المصطلح نفسه ولا يؤيده، مع أنها أصوات نسائية، ويراه خطأ شائعًا (درويش[٣])؛ بل ويذهب إلى أن هذا التقسيم يفصل بين ما لا يحتمل الفصل بينهما: أدب نسائي، وأدب رجالي (كرام[٤]، والخطيب[٥])؛ ولذا رأت غنية[٦]، أن هذا المصطلح يحمل دلالات التعصب للنساء على الرجال. على أن هناك من الأدباء والنقاد من يؤيد المصطلح ويتحمس له؛ لأنه يعبر عن مدى وعي المرأة بما يدور حولها من أحداث اجتماعية وصراعات سياسية وغيرها، وقد ناقشت

(١) توفيق، أشرف، اعترافات نساء أديبات، ط١، القاهرة، دار الأمين، ١٩٩٨م، ص ١٠.

(٢) السيوف، نبيلة فايز، قضايا المرأة بين الصمت والكلام في الرواية العربية، رسالة ماجستير بالجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م.

(٣) درويش، سمية، الطاقة المبدعة هوية، مجلة الكاتبة، إلكترونية، ع٢، ١٩٩٤م، ص ٣٤.

(٤) كرام، كرام، زهور، السرد النسائي العربي، مقاربة في المفهوم والخطاب، الدار البيضاء مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٤م، ص ٩٤.

(٥) الخطيب، حسام، حول الرواية النسائية في سورية، مجلة المعرفة، ع١٦٦ كانون الأول ، ١٩٧٥م، ص٨١.

(٦) هنية، بوضياف، كتابة الأنثى/ أنوثة الكتابة: أحلام مستغانمي أنموذجا، مجلة جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ٢٠١١م، ص ٢٠٢.

ذلك (معمري[١]، ٢٠١١م)، وانتهت إلى عدم ثبات المصطلح، إضافة إلى أن الخلاف القائم بين المثقفين العرب حول هذا المصطلح راجع لطبيعة الرؤية التي ينظر منها كل أديب لهذا المصطلح.

ويمكن القول بعدُ: إن الأدب لا يعرف جنسًا فالرجل والمرأة فيه سواء، ولم يعرف الأدب ثقافة الذكورة إلا في عصور الانحطاط والجهل؛ لأن المرأة كانت تحمل همّ الأمة، وتشارك في تغيير الواقع حتى في العصر الجاهلي. وما من أحد ينكر أن الخنساء أنشدت قصيدتها في صخر أخيها أمام النابغة في سوق عكاظ فقال لها: والله لولا أن سبقك أبو بصير –يقصد الأعشى– فأنشدني آنفًا لقلت: إنك أشعر الجن والإنس، والله ما رأيت أنثى أشعر منك. فقالت له الخنساء: والله ولا رجلاً [٢]. وتظهر في هذه القصة ثقافة المرأة وإقدامها على الإنشاد في مجالس الرجال، ثم ثقتها بنفسها، وإعزازها لمكانها، أنكر من أنكر، ووافق من وافق.

وإذا كان سيد الوكيل قد ذكر أن إسهامات المرأة ظلت محدودة نتيجة لممارسات التهميش والإبعاد التي مارستها ذكورية الثقافة على المرأة فالتاريخ يخالفه في ذلك؛ حيث إن المرأة تفرض نفسها بأدائها المتميز، وقديمًا قالوا: الحرية تنتزع ولا توهب، وقال شوقي[٣]:

---

(١) معمري، أحلام، إشكالية الأدب النسوي بين المصطلح واللغة، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ع٢، ٢٠١١م.

(٢) المرزباني، ج١/ص٣٠٣.

(٣) شوقي، أحمد، الموسوعة الشوقية: الأعمال الكاملة لأمير الشعراء أحمد شوقي، جمع وترتيب وشرح: إبراهيم الإبياري، ط١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٥هـ–١٩٩٤م، ج٢/ص٢٦١.

ومـــا نيـــل المطالـــب بـــالتمني ولكـــن تؤخـــذ الـــدنيا غلابـــا

وإذا كان سيد الوكيل ذكر أن هناك إسهاماتٍ رائدةً للنساء، وجعل أول امرأة قد أسهمت بشكل قوي عائشة تيمور بكتاب "نتائج الأحوال في الأقوال والأعمال ١٨٨٧م"، فإن هناك ما هو قبل ذلك بعام تقريبًا حين ألقى الدكتور شبلي شميل محاضرة فضل فيها الرجال على النساء، ودعا إلى عدم المساواة وقد رد عليـــه جمع كبير من النساء في مجلة المقتطف وبرز اسم امرأتين في قوة الرد همـــا: راحيل محار من القاهرة، والثانية هي مريم مكاريوس وقد فندتا آراء الـــدكتور شبلي شميل رأيًا رأيًا.

[١-٢] مفهوم الغضب بين الأدب وعلم النفس:

للغضب في علم النفس تعريفات كثيرة؛ منها تعريف معجم علم النفس والتربية[١]، الذي يراه "استجابة انفعالية يثيرها بوجه خاص التدخل والإهانة والتهديد، ويتميز ببعض الخصائص مثل السلوك العدواني والتغيرات التي تبدو على الوجه". ويمكن تعريف الغضب في الأدب تعريفًا مختصرًا؛ فهو الذي يعني بكلمة (لا) في ثقافة الأدباء وإنتاجهم الأدبي. أو بعبارة أخرى هو: ثقافة المقاومة وأدبها؛ ذلك أن الأديب ابن بيئته ليس يعيش في برج عاجي، متعاليًا على الناس، بل هو واحد منهم، يعاني ما يعانون من الألم، ويفرح لما يفرحون به. من أجل ذلك كان ينبغي أن يكون معبرًا عنهم، رافضًا لكل أوجه القصور والمثالب في مجتمعه، ناظرًا في نفسه فما تنكره ذاته فحتمًا ينكره المجتمع من

(١) مجمع اللغة العربية: معجم علم النفس والتربية، ١٩٨٤م، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٨٤ م، ص ١٤.

حوله. فليكن الأديب ذاتيًّا غيريًّا –على حد تعبير الدكتور شوقي ضيف– ذاتيًا؛ لأنه يعبر عن ذاته بأدبه، غيريًّا لأنه يعبر عن آلام مجتمعه وآماله.

إن الأديب ينبغي أن يكون ناقدًا ما يحيط به دائمًا –حتى ولو كان جيدًا– لأنه يحلم بما هو أفضل منه دائمًا، ومن هنا تكون نظرة الأديب دائمًا حلمًا يسعى الناس لتحقيقه؛ ليصبح الشاعر والناس من حوله في سعي دائم إلى الأحسن.

وحين يجد الأديب حوله أشياء لا يرضى عنها فإنه يغضب، والغضب –كما يذكر علماء النفس– هو إحساس أو عاطفة شعورية تختلف حدتها من الاستثارة الخفيفة وانتهاء إلى الثورة الحادة –على حد قول تشارلز سبيليرجر– غير أن هذا الغضب يكون في إطاره الصحيح ما لم يجاوز الحد فيؤذي الآخرين، والإنسان حين يغضب تصدر عنه إحدى ثلاث حالات:

١. أن يعبر عن هذا الغضب تعبيرًا صحيًّا صريحًا في سلوك يتسم بالقوة.
٢. أن يكبت هذا الغضب ويكبحه، وهذه الحالة فيها خطورة شديدة على الشخص؛ لأن هذا الكبت قد يصيبه بأمراض مختلفة كارتفاع ضغط الدم، أو الاكتئاب، أو نحو ذلك.
٣. الغضب الهادئ وهو تغيير لمسار الغضب، وذلك بالتوقف عن التفكير في الغضب، وتحويل مسار التفكير إلى شيء آخر، أو ما يسمى: "الغضب العبقري" وذلك بالنظر في الشيء الذي أحدث الغضب، والعمل على أخذ دفعة قوية لتغيير إيجابي، وسلوك متوازن يجعل من الأمور المحيطة طاقة إيجابية تدفعه إلى تحدي ما يحدث الإحباط، وتغيير النفس نحو الأفضل. ومن الأفضل أن يكون دور الأديب كذلك: بأن ينفس عن غضبه بكلمات موجهة إلى نفسه أولاً، ثم إلى مصدر الإحباط رجاء التغيير، ولكن ينبغي هنا أن يكون الأديب ممتثلاً لما يقول، فإذا أمر الناس بالتغيير فليكن أول من

يسعى له، وإذا قال للظلم والبغي «لا» فلا بد أن يقولها أيضًا واقعًا وعملاً، وأن يضحي من أجل ما يقول حتى يتأثر به الناس، فالشاعر رائد مجتمعه يأخذ بأيديهم نحو التغيير دائمًا.

[١-٣] شعر فدوى طوقان بين الرومانسية والوطنية:

شاعرة فلسطينية (١٩١٧ – ٢٠٠٣م) كانت تسمى –حسبما ذكرت صبيحة شبر– أيقونة فلسطين، وأم الشعراء، والجيل الثالث في نابلس، وشاعرة العرب، والشاعرة العربية في مختلف العصور، "تغلّبت على الصعاب ورسمت لها دوراً في انتفاضة الشعب الفلسطيني لا يقل أهمية عن دور المنخرطين في ساحات المعارك، فوجدت في الشعر الحماسي دافقاً مهماً وقوياً في تعزيز الصمود في المعركة" (سعيد، الشبكة العالمية). وقد تركت وراءها ثمانية دواوين هي:

١-وحدي مع الأيام ١٩٥٢م، دار النشر للجامعيين.

٢-وجدتها ١٩٥٧م، بيروت، دار الآداب.

٣-أعطنا حبًّا ١٩٦٠م، بيروت، دار الآداب.

٤-أمام الباب المغلق ١٩٦٧م، بيروت، دار الآداب.

٥-الليل والفرسان ١٩٦٩م، بيروت، دار الآداب.

٦-على قمة الدنيا وحيدًا ١٩٧٣م، بيروت، دار الآداب.

٧-تموز والشيء الآخر ١٩٨٩م، عمان، دار الشروق.

٨-اللحن الأخير ٢٠٠١م، عمان، دار الشروق.

ومن آثارها النثرية تركت ثلاثة كتب هي:

١-أخي إبراهيم ١٩٤٦م، المكتبة العصرية، يافا، فلسطين، المكتبة العصرية.

٢-رحلة صعبة (رحلة جبلية)، وهو كتاب في السيرة الذاتية لها ١٩٨٥م، عمان، دار الشروق.

٣-الرحلة الأصعب، وهو سيرة ذاتية أيضًا ١٩٩٣م، عمان، دار الشروق.

وقد مر شعر فدوى طوقان بمرحلتين:

١-الشعر العمودي وقد ظهر ذلك في ديوانيها الأولين: وحدي مع الأيام، ووجدتها. وكانت تنسج الشعر الذي ينزع إلى الرومانسية.

٢-الشعر الحر الذي ينزع إلى الرمزية والواقعية كما نرى في ديوانيها: أمام الباب المغلق، والليل والفرسان.

أما موضوعاتها فمرت بمرحلتين أيضًا:

١-الشعر الذاتي الرومانسي وذلك في مراحلها الأولى منذ أن كتبت الشعر إلى أن جاءت النكسة ١٩٦٧م تقريبًا.

٢-الشعر الوطني فيما بعد ذلك وإن ظلت ألفاظها رومانسية في الحديث عن شؤونها الخاصة وما تسجله من أشعار اجتماعية.

والأديب تصنعه المعاناة، ويصقله الألم؛ ولذا جاء تحول فدوى تحولاً طبيعيًّا لتعيش مشكلة أمتها، وتعبر عن هموم مجتمعها.

[٢-١] الغضب والعنف في شعر فدوى طوقان:

سبق الحديث عن أدب الغضب وأنه هو أدب المقاومة. وسبقت الإشارة إلى أن الغضب درجات تبدأ من استثارة خفيفة، وتتدرج إلى الثورة، وبين ذلك تأتي درجات الغضب التي تختلف من شخص لآخر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن العنف درجة من درجات تنفيس الغضب؛ فهو نوع من الخروج عن السيطرة على النفس، فيفقد العقل السيطرة على الجوارح؛ فاللسان يشتم، واليد تبطش، والرجل تركل، وغير ذلك.

ولم يصل الباحثان إلى أحد من علماء النفس فرق بين الغضب والعنف، إلا أن هذا التفريق هو ما يفهم من اللفظتين. وإذا كان الحديث عن الغضب الناعم،

فإنه يجب أن يكون التركيز على الغضب المتعقل، الذي يصدر بعد فكر وروية. وتدور الفكرة، في هذه الدراسة، حول غضب المرأة؛ هل هو من جنس العنف؟ أم من جنس الغضب البناء؟ أو ما يمكن أن يسمى (الحزن العبقري) الذي يكون بناءً لا هدمًا، يجمع ولا يفرق، يصلح ولا يفسد؟ ومع هذه القيم يكون الحديث في شعر فدوى طوقان.

وقد ذكر النعيمي[1] أن من أهم خصائص الشعر النسائي: العاطفة الأنثوية، وهي عاطفة كالحب مثلاً أو الأمومة، ولذلك قلما يقرأ الإنسان قصيدة مجهولة القائل فلا يعرف جنس صاحبها: أرجل قائلها أم امرأة؟ وهذه المشاعر التي تحملها المقطوعة الأدبية تتوافق مع طبيعة المرأة التي لا تميل إلى العنف بل تصطنع أشياء أخرى، هذه الأشياء الأخرى هي موضوع الدراسة.

كذلك من خصائص الشعر النسائي مسحة الحزن: التي تغلب على شعر المرأة. فمن الأمور الثابتة أن الرجل خلق من طين أي من مادة ليس بها إحساس، وأن المرأة خلقت من ضلع آدم عليه السلام أي من حي يحس، وبالتالي نرى أن الإحساس عند المرأة أقوى منه عند الرجل، ولهذا نجد الحزن في الأدب النسائي أكثر منه في أدب الرجال؛ وربما يعود ذلك لسيطرة روح الرومانسية على كتابات النساء، ثم إن الحزن ينتج عن الوعي والإدراك، فكلما كان الإنسان مدركًا لوجوده زاد قلقه على هذا الوجود.

والمثقفات اللاتي يكتبن أكثر وعيًا من الأميات اللاتي رضين بالأمر الواقع، يقول الأستاذ/ أنور الجندي –رحمه الله– "في مراجعة شاملة للأدب النسوي المعاصر... يتبدى طابع حزين منقبض يغمر أدب المرأة ويكاد يصبغه بصورة

(١) النعيمي، أنس حسام، انتفاضة الأقصى في شعر النساء، القاهرة، مركز الإعلام العربي، ٢٠٠٦م.

مظلمة قاتمة"[١] وربما عادت هذه المسحة الحزينة إلى حساسية المرأة المفرطة إزاء حوادث لحياتها وظروفها التي تسبب لها القلق فيجثم على صدرها، فتنفثه في أدبها بدلاً من أن تنثره من عبراتها.

[٢-٢] وسائل التعبير عن الغضب في شعر فدوى طوقان:

يقول الرافعي: قد يكون قول: (لا) معركة، ومن طريف تشبيهه لكلمة (لا) بأنها عقدة حبل المشنقة، وهو صادق في تصويره، فـ (لا) مشنقة للثائر بداية وللظالم أخيرًا (أحمد، الشبكة العالمية).

وكلمة (لا) تقع ضمن منظومة ثقافة المقاومة، ولها صور متعددة غير صورة حمل السلاح في وجه الظالم، فالأدب مقاومة، والصمود مقاومة، وبث الأمل مقاومة، وهكذا نجد أن أدب الغضب تقترن تصوراته بالمستقبل ونرى فيه تغييرًا ورجاء في الأفضل، وأملاً في مستقبل أحسن. ودور الأدب يكمن في مواصلة هذه الصيحات، والتبشير بمواصلة طريق الكفاح حتى يتبدل الزمان، وتتغير الأحوال إلى الأفضل، فالأدب تأسيس لحراك جديد؛ عماده الكلمة، وأمله التغيير لواقع المجتمع، والنهوض بالوطن إلى العلا.

إحياء الروح الوطنية:

إحياء الروح الوطنية له مظاهر كثيرة في شعر فدوى طوقان منها: حب الأرض والتمسك بها، والارتباط بالوطن، وتذكر أيام الصبا، والرغبة في افتداء الوطن بالنفس، كل ذلك من وسائل المقاومة، ففي الوقت الذي نجد فيه المحتل يحاول شغل أبناء الوطن بقضايا أخرى؛ لينسوا أن وجود المحتل والاعتراف به

(١) الجندي، أنور، د.ت، أدب المرأة العربية، القاهرة، مطبعة الرسالة، د. ت.، ص ١٣٢.

جريمة. وتؤكد الشاعرة ضرورة الانشغال بالقضية، وبإحياء الروح الوطنية، فهي ترفع قدر هذه البلاد لتجعلها جنة، وقد بدا ذلك من خلال التشبيه البليغ الذي حذف منه طرفان [الوجه والأداة] وبقي طرفان [المشبه والمشبه به] حيث زالت الفوارق بين الطرفين بحذف الوجه والأداة، وإذا قيل في النحو: إن الخبر هو عين المبتدأ في المعنى، فإن هذا يفيد أن جنة الدنيا هي بلاد الشاعرة [فلسطين] تقول(١):

جنة الدنيا بلادي
حبها ملء فؤادي
ريحها في كل وادي
حسنها للعين بادي
جنة الدنيا بلادي
في الضواحي والغياض
في السواقي والحياض
حسنها للعين بادي
جنة الدنيا بلادي

والكلمات تفيض عشقًا وغرامًا بهذه البلاد، وتتجلى في القصيدة روح وطنية عالية تشير إليها الشاعرة في امتلاء قلبها بالحب، واشتمام ريحها الزاكية في كل وادٍ، وفي بروز حسنها للأعين الناظرة. إنها تملك عليها جميع مشاعرها. وتتكرر في القصيدة جملتان هما أسُّ المعنى في هذه القصيدة: [جنة الدنيا بلادي، حسنها للعين بادي] فهي تريد توكيد هذين المعنيين؛ فلو أنها هجرت أرضها، وعاشت في مكان آخر فلن ترى أجمل من المكان الذي يسمى بلادها؛

(١) طوقان، الشبكة العالمية.

لأنه جنة. وتعكس إضافة البلاد إلى ضميرها المتكلم (بلادي) حبًّا وعشقًا، فهي قطعة من الشاعرة، وتسكن في الشاعرة، ويمكن أن تكون الشاعرة قد نظرت في هذا المعنى -الذي يصور البلاد جنة- إلى قول شوقي[١]:

وطني لــو شــغلت بالخلــد عنــه نازعتني إليه في الخلــد نفــسي

فالتجربة هي التجربة لكن شوقي يتفوق على الشاعرة في الأداء، والمبالغة اللطيفة التي جعلت نفسه تنازعه في جنة الخلد من أجل مصر وجمالها. وأما المعنى الثاني فهو: حسنها للعين بادي، وهي تحاكم من ينكر ذلك إلى عينيه؛ ليرى حسن هذه البلاد واضحًا ظاهرًا، بيْد أن الشاعرة عندها إحدى هاتين الجملتين أهم من الأخرى؛ فوصف البلاد بالجنة أهم من بدوّ حسنها، ولهذا بدأت به القصيدة، وختمت به، وهو ما يعرف في البديع برد العجز على الصدر، ولكنه يختلف عما ذكره البلاغيون في أمرين: كونه على نطاق نص أدبي كامل، وليس نطاق بيت واحد. والثاني: أنه إعادة جملة كاملة، وليس كلمة، أو اشتقاق منها.

ومن مظاهر إحياء الروح الوطنية في شعر فدوى طوقان: تذكر الماضي الجميل: فحين يذكر الإنسان ماضيه يزداد حرصه على تلك الأرض التي تحمل ذكرياته ويدافع عنها، وبالمقارنة بين الواقع والماضي حيث كان الإنسان في ماضيه ينعم بتلك المعاني حيث الصفاء وراحة البال، فإذا به يصدم بواقع مرير: عدو يحتل أرضه، ويسلب منها وينهب، ويسجن الأبرياء، ويقتل الشرفاء، فلا شك أن هذا الواقع يلح على أبناء الأرض أن يطردوا المحتل؛ لتعود البسمة الناعمة إلى الشفاه، ولتضحك الأفواه التي طال نحيبها على السرقة والقتل

(١) شوقي: ١٤١٥هـ-١٩٩٤م: ج٤/ص٢٧.

والتهجير. ذلك ما أرادت الشاعرة قوله في قصيدتها إلى الوجه الذي ضاع في التيه؛ حيث تصف ماضيها وماضي قومها البسيط الذي لم يفارقها[١] :

كان قومي يزرعون الأرض يحيون
يحبون الحياة
يأكلون الخبز والزيت بحبٍّ وفرحْ
كانت الأثمار والأزهار في كل الفصولْ
تفرش الأرض بأقواس قزحْ
أتُرى ترجع تعطي من هداياها الفصولْ
لبلادي ولقومي؟
أتُرى ترجع تعطي؟

إنها قصة قوم بسطاء، يحيون عيشة بدائية، يأكلون من غرس أيديهم، وليس من المساعدات؛ فهم يأكلون خبزًا وزيتًا، ولكن هذا الطعام على رداءته كان يشبعهم ويرضيهم، فهم يأكلون بحب وفرح، ومفردة (الحب) هنا تومئ إلى ما كان منتشرًا بين الناس في ذلك الزمن الجميل من ود وحب وإيثار وعدم تلذذ بتعذيب الآخرين... إلخ، تلك الصفات التي هي موجودة في الواقع. وفي الزمن الحاضر وقد بادلت الأرض أهلها بالحب والود فآتت أكلها كل حين بإذن ربها، فأنتجت الأثمار؛ لكي يأكلوا، وأزهرت الأزهار بشتى ألوانها، فإذا كان الطعام لقضاء ضروريات الحياة، فإن الأزهار لسرور العين والأنف وهي كماليات فهو تحقيق للضروري والكمالي.

(١) طوقان؛ فدوى: الرحلة الأصعب، عمان، دار الشروق، ١٩٩٣م، ص ٤١٣.

والواقع تجسده تلك الأسئلة المتكررة، ذلك السؤال المفيد للاستبعاد (أتُرى ترجع تعطي من هداياها الفصول؟) هذا سؤال ثم في السطر الذي يليه جاء المتعلق فأوهم بإعادة السؤال السابق مرة أخرى، فكأن السؤال أعيد مرتين؛ مرة بدون المتعلق (لبلادي ولقومي)، ومرة أخرى بهذا المتعلق فأفاد ارتباط هذا العطاء بالبلاد والقوم، بل ببلادها وقومها. ثم كان السؤال مرة ثانية عن العطاء نفسه حيث الأرض ستظل تعطي للناس إذا كانوا على الصفة التي كان عليها قومها. وما دامت الأمور قد تغيرت فهي تتساءل عن عطاء الأصول لبلادها وقومها، وإن ظلت تعطي غير قومها وبلادها، ثم تشككت أكثر فظنت أن الأرض لن تعطي أحدًا.

ومن مظاهر إحياء الروح الوطنية في شعر فدوى طوقان: الرغبة في التضحية بالنفس لأجل الوطن: وقد ذكرت الشاعرة رغبتها في التضحية بنفسها لكي تستمر الحياة، فهو استشهاد وفناء ولكن بصورة هادئة وراءها هدف آخر: هو أن تكون سرًّا للحياة، فيموت جسدها؛ ليمد شجرة مثمرة، فهو فناء يكون سعيًا للبقاء في شيء آخر، تقول[١]:

يا رب أما حان وقت الردى
وانعتقت روحي من هيكلي
وأعنقت نحوك مشتاقةً
تهفو إلى ينبوعها الأول
وبات هذا الجسم رهن الثرى
لقى على أيدي البلى الجائرة
فلتبعث القدرة من تربتي

(١) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٢٢-٢٣.

زيتونة ملهمةً... شاعرةm!
جذورها تمتصّ من هيكلي
ولم يزل بعدُ طريًّا رطيب
تعبّ من قلبي أنواره
ومنه تستلهم سرّ اللهيب !
حتى إذا يا خالقي أفعمت
عناصري أعصابها والجذور
انتفضت تهتز أوراقها
من وقدة الحسّ ووهج الشعور
وأفرعت غيناء فينانة
مما تروّت من رحيق الحياة

إن هذه الزيتونة سوف تمتص من هيكل الشاعرة، وتَعُبُّ الأنوار من قلبها، ثم تنتفض مهتزة بأوراقها، قد أخذت وقدة الحس، ووهج الشعور. إنه فناء لجسد الشاعرة، لكنه حياة شجرة ملتصقة بالأرض؛ تمد جذورها فيها، ولا تقتلع الرياح أصلها، عند ذلك سوف تستمتع الشاعرة بطول العمر من خلال الشجرة التي أمدتها بجسدها. وعند ذلك أيضًا سوف تستعصي على التهجير، ففي الوقت الذي يسعى المحتل لقلع جذور الشعب، تبقى الشاعرة في أرضها مثبتة فيها على صورة تخالف صورة البشر، قد مات فيها الجسد لكن الروح تلبست بالأرض أكثر، إنه وجود لا يحس به أحد، لكنه وجود لأصل الحياة. وهذا من أنواع المقاومة الناعمة بل العنيفة؛ لأنها تثبت أقدامها في الأرض بصورة أقوى من صورتها الإنسانية. وتكرر الشاعرة هذا المعنى كثيرا فهي تقول[1] :

(١) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٤٢٦.

كفاني أموت على أرضها
وأدفن فيها
وتحت ثراها أذوب وأفنى
وأبعث عشباً على أرضها
وأبعث زهرة
تعيث بها كف طفلٍ نمته بلادي
كفاني أظل بحضن بلادي
تراباً
وعشباً
وزهرة

إنه تمسُّكٌ بالأرض حتى بعد الموت، وسَعْيٌ إلى العيش عليها، والدفْن فيها، حتى يتحلل جسدها ويمد زهرة من زهورها بالحياة، إنه عشق الأرض، والرغبة في مقاومة المغتصب بهذه الصورة التي هي أقوى من الرصاص؛ إذ إن الارتباط بالأرض صار في قلب هذه الشاعرة وعقلها عقيدة لا تزلزلها العواصف، ولا ينسيها التهجير القسري أرضها ودارها. وهنا تكمن قوة حب الأرض حيث صار مختلطًا بدمها، ولا تمحوه قوة أرضية مهما كانت قوتها، وكان بطشها وأذاها. وتقول فدوى في قصيدتها: نداء الأرض[١]:

هذه الأرض امرأة
في الأخاديد وفي الأرحام
سر الخصبِ واحد
قوَّةُ السرِّ التي تُنبتُ نخلاً–

(١) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٤١٨.

وسنابل

تُنبتُ الشعب المقاتل

تسوي الشاعرة بين الأرض والمرأة، من خلال هذا التشبيه البليغ، ووجه الشبه بينهما سر الخصب، فإذا كانت المرأة تنجب أولادا يحملون اسم الأب، ويدافعون عنه وعن الأم، فإن هذه الأرض تنبت نخلا، وتنبت لهؤلاء البشر ما يقتاتون به، وأهم من ذلك أنها تنبت الشعب المقاتل الذي يذود عن الأرض والعرض، ويطرد المحتل المغتصب لهذه الأرض، إن هذا التشبيه على الرغم من قربه وابتذاله –حسب تعبير البلاغيين– إنه في هذا الموقف بديع، ومن هنا كان ارتباط الشاعرة بالأرض، وتنبيه إلى النظر للأرض بنظرة أخرى تتجاوز حدود النظرة الشخصية الضيقة إلى فضاء أرحب وأوسع هو اعتبار هذه الأرض زوجة وابنة وأختًا وأمًّا، فهي امرأة تبنت مثلها مثل المرأة تماما، وإذا كانت نخوة الرجل تتحرك ليدافع عن هؤلاء الأربع، فلتكن الأرض مثلهن يدافع عنها، ويحميها، ويطرد عنها المعتدي.

ومن مظاهر إحياء الروح الوطنية في شعر فدوى طوقان: رفض مبدأ المساومة: ففي رسالتها التي وجهتها إلى شعراء المقاومة في فلسطين حين التقت بهم في حيفا. سنة ١٩٦٨م. تقول رافضة مبدأ المساومة، وصارخة بأعلى صوتها، أنْ لا تنازُلَ عن الأرض، وأنها –كجميع الشعراء المخاطبين– متمسكة ببيتها، وأنها ترفض أن تعيش غريبة، كما المليك مجندلا جنب العسيب. تقول[1]:

على أبواب يافا يا أحبائي

وفي فوضى حطام الدور

بين الردم والشوك

(١) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٣٩٤.

وقفت وقلت للعينين: يا عينين

قفا نبك...

فهي توجه حديثا ملؤه الشجن إلى أحبابها المحاربين، وأصدقائها المظلومين مثلها تماما، في مشهد عبثي به الدور المحطمة من فعل المغتصب المحتل، وقد أحاط بها الردم من جهة والأشواك من جهة أخرى. ما دار بينها وبين عينيها من حوار فيه تشخيص للعينين، فقد قالت لهما: قفا نبك. هنا يبرز دور التشخيص؛ حيث إن العينين قد صارتا صديقين شاركاها هذا المشهد الحزين، وهذا يعكس تقطع كل عضو فيها، وتأثر كل ذرة من ذرات جسدها بالمأساة، كما يلمح التجريد في هذا السياق صارت به العينان شيئا آخر غير عينيها، ولم يفت الشاعرة أن تتناص مع التراث العربي فاقتبست من امرئ القيس مطلع معلقته[(١)]:

قفا نبك من ذكرى حبيـــب ومنـــزل بسقط اللوى بين الدخول فحومـــل

ولا يخفى علينا ما قاله النقاد في هذا البيت من أنه وقف واستوقف وبكى وأبكى. وهكذا فعلت الشاعرة حين وقفت على الدور المهدمة، والأسر المشردة بعد أن كان أهل هذه الدور يعيشون سعداء هانئين.

بـــث الأمـــــل والنهي عن اليأس والقنوط:

إن شر الهزائم هزيمة النفوس؛ فالنفس المهزومة تستسلم وإن كانت في يديها القوة، والنفس القوية تنتصر وإن قتلت. وقد يكون في مقتل النفوس حياة الأوطان، ومن هنا حرصت الشاعرة على بث روح الأمل بين أبناء شعبها، ومن ذلك قصيدتها التي أهدتها إلى الشاعر الفلسطيني كمال ناصر وهو في سجنه في الضفة الغربية في الخمسينيات وهي قصيدة: "إلى المغرد السجين"

---

(١) الزوزني: ص١٧.

والقصيدة تبدأ ببيتين عموديين من بحر المتقارب: فعولن فعولن فعولن فعولن، والقصيدة فيها دعوة إلى استشعار الأمل والعيش به وله، وعلى الرغم من أن الشاعرة تخاطب شاعرًا هو كمال ناصر، وعلى الرغم أيضًا من أنها تكلم سجينًا قد أُلقي في الأسر ظلمًا، إلا أنها اعتمدت بشكل كبير على المفردات والمعاني الرومانسية، ولا يكاد يخلو مقطع من التركيز على الأمل تقول[١] :

محلّقاً رغم انغلاق الرحاب

يا طائري السجين فاصدح لنا

من خلف جدران الدجى والعذاب

غنّ، فقضبان الحديد التي

لن تحجب الغناء عن سمعنا

وهي تتذكر الماضي أيام كان يشدو كمال ناصر بقصائده العذبة تحت ظلة الياسمين، وكان كمال ناصر يشدو لهم شعر المنى والزهو والعنفوان، وكان في أغانيه شموخ يبدو كالجبال، وعزة لن تتحقق إلا مع النصر على العدو ليروا ثمرة كفاحهم.

وبدا في شعر الشاعرة، كذلك، النهي عن اليأس قولاً وعملاً: ذلك أن اليأس كفر لا يعرفه إلا ذوو القلوب الضعيفة والنفوس المريضة، أما أصحاب الهمم العالية فلا يعرفون اليأس، وهذه الشاعرة تنهى في قصيدة على المغرد السجين كمال ناصر الشاعر السجين أو المغرد السجين عن أن يدب اليأس إلى نفسه قائلة [٢] :

يا طائري السجين اصدح لنا

---

(١) طوقان: فدوى، الرحلة الأصعب، ص٢٤٤.

(٢) السابق: ص ٢٤٥.

رغم هوان القيد رغم الظلام
فالأفق ما زال غنيّ المنى
ينتظر الشمس وراء القتام
المجد للنور فلا تبتئس
والنصر للحرية الرائعة
وغدنا موطن أحلامنا
فلا تقل أحلامنا ضائعة...

إنه نهي عن الابتئاس ونهي عن قول: أحلامنا ضائعة، وهو قول قد يطرأ على نفس السجين أو من احتلت أرضه، لكن الشاعرة تعرف قضيتها، وتؤمن بفكرتها، وتصر على تحقيقها، ولكن بأسلوب عصري حديث وهو النهي عن اليأس. إنها تحلم بغد أفضل، تتحطم فيه الأغلال، ويعيش المهزوم معنى النصر والظفر، فالأيام دول يوم علينا، ويوم لنا، ويوم نُساء ويوم نُسرّ.

ومن أمثلة النهي عن اليأس أيضًا قول الشاعرة على لسان حمزة لابنة عمه –الشاعرة–[(١)] :

اصمدي لا تضعفي يا ابنة عمي
هذه الأرض لا تحصدها نار الجريمة
هذه الأرض ستبقى

إن الإنسان قد تمر به ساعات يشعر فيها بالضعف والعجز، ولا بد أن يجد بجواره من يواسيه، ويرفع من روحه المعنوية حتى يتخطى حالة الضعف التي يمر بها، فإذا لم يجد تراكمت عليه الهموم، وسيطر عليه اليأس والقنوط، وفقد روح المقاومة، واستسلم للأمر الواقع. ومن هنا كانت أهمية هذه الوصية، ثم إنه

(١) طوقان: فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٤١٧.

يذكرها بقضية كبرى لا يفهمها إلا أصحاب الرؤية المستنيرة: هذه الأرض ستبقى. فمهما طغى الجبابرة المحتلون الغاصبون فسيذهبون، وستبقى أرضنا ملكا لنا.

ومن بث الأمل في نفوس الفلسطينيين: الدعوة إلى رسم عالم المثل في داخلهم: حيث إن السعادة شيء مستقر في النفس، إذا ما استشعرها الإنسان عاش سعيدًا، أما الذين يعانون من التعاسة فهم يريدون تحقيق السعادة بمظاهر الحياة الكاذبة كالمال والجاه والسلطان. ومن هنا كانت الدعوة إلى رسم عالم جميل يعيش فيه الفرد مهما كانت ظروف حياته قاسية. إنها سعادة نفسية لها أسبابها الإيمانية والروحية التي تجعل الشخص سعيدًا باسمًا مهما قست عليه الحياة، وعانده الزمان.

الشاعرة ترسم عالم المثل في داخلها وتراه وتحسه، وتريد من كل فلسطيني أن يعيش هذا العالم، ويسعى إلى إيجاده في عالم الواقع، وربما قلنا إنها تحلم بهذا العالم، وتحاول إيجاده داخلها ليوجد داخل كل فرد من أفراد شعبها، إنه نوع من الأمل وإذا انعدم هذا الأمل انعدمت الحياة، فهي متعلقة به تسبح في رحابه، تقول فدوى في قصيدة أوهام في الزيتون[1] :

هنا يهيم القلب في عالم
تخلقه أحلامي المبهمة...

إلى أن تقول:

في عالم الأشواق روح حبيب
لم تره عيناي لكنني
أحسه مني قريبًا قريب

(١) طوقان: فدوى، الرحلة الأصعب، ص ١٩.

فهي تشعر بهذا العالم وتراه في داخلها، صحيح أن عينيها لم تر هذا العالم، لكنها تحسه في داخلها، وهو قريب منها هو الراحة في عالم عانٍ، هو الأمن في عالم إرهابي، هو الطمأنينة في جو الخوف الذي تحسه الشاعرة.

ومن بث الأمل كذلك في شعر فدوى طوقان: الإيمان بأن تحقيق الأحلام على المستوى الشخصي قد يحقق أحلام الأمة: إن حديث النفس يكون غالبًا هو ما يحلم به الإنسان، ويرى في حلمه أنه قد حقق هذا الحلم أحيانًا؛ لشدة تعلقه به. وقد عبرت الشاعرة عن أحلامها وتحقيقها في بعض ما حلمت به كما في قصيدتها: أنا والسر الضائع [١] :

ما زلت أبحث والدرب بعيد طويل
أبحث في المجهول عبر الزمان
عن ضائع أبحث، عن سرّ..

إلى أن تقول:

لقيته يملأ دربي سناه
لقيت سري الضائع المبهما
لقيت سرّي بغتة بعدما
ظننته أنأى من المستحيل

إن التكرار يشي بفرحة وجود هذا السر الذي لم يكن من المتوقع أن يوجد، فهي فرحة لقاء السر التي عندها ينتشي الإنسان فرحًا، فينطلق لسانه معبرًا عن هذه الفرحة، مكررًا أنه قد وجد بغيته، ولقي سره الذي يبحث عنه.

ومن مظاهر بث الأمل: أن تحلم بالحرية وتصورها في نفسك: ذلك أن النفس التي لم تعتد الحرية إذا أتتها الحرية رفضتها، وبحثت عن عبودية أخرى،

(١) السابق، ص ١٧٧.

فقد اعتاد بنو إسرائيل الذل والعذاب حتى حررهم موسى من فرعون، فما كادوا يخرجون من البحر، ومن رؤية فرعون ميّتًا أمام أعينهم فرأوا قوما يعكفون على أصنام لهم. حتى قالوا: [يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة] [(١)]، وقد أصدرت الشاعرة ديوان الليل والفرسان عام ١٩٦٩م؛ أي بعد النكسة واحتلال بقية أرض فلسطين، فما كان من الشاعرة إلا أن استجابت لهذه الأحداث الجسام، وتحولت من الشعر الذاتي الرومانسي إلى الشعر القومي. ومن قصيدتها حرية شعب تقول[(٢)] :

حريتي.. حريتي.. حريتي

صوت أردده بملء فم الغضب

تحت الرصاص وفي اللهب

إنها مصممة على الحرية تحت القصف والعسف والرصاص والنار، وتنطقه بملء فمها، فلن يستطيع أحد أن يسلبها حريتها أبدا؛ لأنها آمنت بها، وعاشت لها، وتريد أن تموت من أجلها. والتكرار يعكس أمرين؛ الأول: مدى القهر الذي يفرضه الاحتلال على أهل فلسطين. والثاني: ما تشبعت به نفس الشاعرة من حب للحرية، جعلها أنشودة لا تني الشاعرة في ترديدها، ولا يسكت لسانها عن تكرارها. لقد تكررت كلمة الحرية سبع عشرة مرة في قصيدة واحدة حملت العنوان نفسه، وهذه حالة من التماهي مع هذه الحرية رغم الظلم والبؤس تقول[(٣)] :

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٣٨.

(٢) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٤٢٧.

(٣) السابق: ص ٣٩٤.

في السجن في زنزانة التعذيب في عود المشانق
رغم السلاسل رغم نسف الدور رغم لظى الحرائق
سأظل أحفر اسمها حتى أراه
يمتد في وطني ويكبرْ
ويظل يكبرْ
ويظل يكبرْ
حتى يغطي كل شبر في ثراهْ
حتى أرى الحرية الحمراء تفتح كل بابْ
والليل يهرب والضياء يَدكُّ أعمدة الضبابْ
حريتي!
حريتي!

فضح أفعال المحتل: ومن الغضب الهادئ الموجه للوجهة الصحيحة أن تفضح أفعال خصمك المحتل لأرضك، لقد استخدم المحتل كل صور التنكيل، والتعذيب والقتل والتشريد ضد أبناء الشعب الفلسطيني، وقد عاشت فدوى طوقان هذه الأحداث، وعبرت عنها في أماكن كثيرة من شعرها، فهي تقول في قصيدتها التي أهدتها إلى الشاعر الفلسطيني كمال ناصر، عندما كان مسجونا في الضفة الغربية في الخمسينيات وأسمتها: إلى المغرد السجين[١] :

شدوك يأتينا حبيب الصدى
محلقاً رغم انغلاق الرحاب
يا طائري السجين فاصدح لنا
من خلف جدران الدجى والعذاب

(١) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٢٤٤.

وتحدثت هنا عن معاناته في السجن خلف الجدران، وما يناله من عذاب، وجدير بالذكر أن كمال ناصر قد انتهت قصته ومعاناته بسبب الاحتلال بالتصفية الجسدية، فقد اغتاله الاحتلال في لبنان عام ١٩٧٣م. وتحدثت الشاعرة عن بعض صور التعسف والقمع من العدو فذكرت الطالبة منتهى حوراني التي مزقتها الكلاب البوليسية، والطالبة إيمان حجو التي قتلت بأكثر من عشرين رصاصة في جسدها. وقد ذكرت قصة إيمان في قصيدتها: جريمة قتل في يوم ليس كالأيام[١]:

بغرفتها أمها المتعبة

تلملم أوراقها المدرسية:

حَذَارِ العدى يا بنية

فعين العدو تصيب

وما كذب القلب.

كان عدو الحياة يطاردها في الميرة

وينشب في عنقها مخلبه

إنه قلب الأم التي توصي ابنتها، خوفا عليها من العدو المحتل، باستخدام اسم فعل الأمر: حذار، وفي هذه اللفظة قوة أكثر من الفعل الصريح، فشتان بين "حذار" و"احذري". وما يضفيه التصغير في قول الأم: يا بنية من حب وعطف وود بين الأم وابنتها وشدة خوفها عليها. وما كذب فؤاد الأم فقد تحقق ما كانت تحذره وتخشاه، فكان (عدو الحياة) والتعبير بعدو الحياة يضفي على المشهد إحساس الشاعرة بفظاعة الجرم وشدته. وقامت الاستعارة المكنية في البيت الأخير بدور مهم في تصوير المشهد؛ فالذي اعتدى على الطفلة وقتلها ليس

(١) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٤٣٤-٤٣٥.

ينتمي إلى البشر بل هو حيوان مفترس لا قلب له ولا ضمير، ولا مراعاة لهذه الطفلة التي تنبض بالبراءة والطهارة.

ومن جرائم المحتل أيضا هدم البيوت، وجعلها أرضا فضاء، ويعد هدم البيت في الثقافة الصهيونية نوعًا من الضغط النفسي الذي يحاولون من خلاله هزيمة الشعب الفلسطيني نفسيا، وقد عبرت الشاعرة عن مشهد هدم دار حمزة ابن عمها [١] فقالت:

طوّق الجندُ حواشي الدار
والأفعى تلوّت
وأتمّت ببراعةْ
اكتمال الدائرةْ
وتعالت طرقاتٌ آمرة:
(اتركوا الدار)!
وجادوا بعطاء
ساعةٍ أو بعض ساعة

ولعلنا أدركنا أن العطاء الذي جاد به الجند هو منح أهل البيت الذي سيهدمونه وهو البيت الذي يملكه حمزة ساعة، وما من شك أنهم لن يمهلوا أهل الدار ساعة بل ربما أقل من ذلك، ثم ليحمل ما باستطاعته من أغراضه التي لا يستغني عنها ليستعد لمعيشة الخيام قبل أن يخلي الدار، فيهيم على وجهه، وقد ترك في هذه الدار ذكريات طفولته وصباه وشبابه وحياته ومسيرة خمسة وستين

(١) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٤١٩.

عاما. وها هي تصف لحظة هدم الدار لتفضح هذا الفجور الذي لا يجد من يرده تقول[1] :

ساعةٌ، وارتفعت ثم هوت
غرفُ الدار الشهيدة
وانحنى فيها ركام الحجرات
يحضنُ الأحلام والدفء الذي كان
ويطوي
في ثناياه حصاد العمر، ذكرى
سنوات عمرت بالكدح،
بالإصرار بالدمعِ
بضحكات سعيدة

إن الغرفات قد شخصتْ وصارت شهيدة، وقد شهدت حياة هذا المجاهد حمزة فترة طويلة من الزمان امتدت إلى ما فوق ستين سنة، عاشت المحنة مع صاحبها، وفرحتْ معه، وحزنتْ معه، وجاهدتْ معه ثم نالتِ الشهادة، فالشاعرة تركز على أن هذه الحجرات عاقلة مثلها مثل البشر تشعر كما يشعرون، ثم كانت نهايتها كنهاية البشر الشهادة في سبيل الله.

دعم الانتفاضة:

قامت الانتفاضة المباركة التي أطلق عليها انتفاضة الحجارة في عام ١٩٨٧م، وكانت ردة فعل لممارسات الاحتلال، وما يلحقه بأبناء فلسطين من قتل وتشريد، وهدم للبيوت، وقد ظل هذا الاحتقان والغضب ينمو حتى انفجرت الانتفاضة في صورة غضب مستمر إلى ما يقرب من عشرين سنة، وقد شارك

(١) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٤٢٠.

في هذه الانتفاضة كل طوائف الشعب الفلسطيني من رجال ونساء وأطفال، وكان الحجر هو السلاح الجبار الذي تحدى به الأطفال والشباب الآلة العسكرية الصهيونية. فكانت هذه الحجارة حجارة من سجيل على هؤلاء المحتلين، الذين فزعوا من الحجر وبأيديهم الرصاص والبنادق. وقد سقط في هذه الانتفاضة شهداء رووا الثرى بالدم الزاكي، فكانوا طليعة مقاومة أكثر رشدا، وأنور بصيرة. وقد كتبت فدوى طوقان قصيدة "شهداء الانتفاضة" وقتها ثم نشرت بعدها بعامين في ديوان "تموز والشيء الآخر" عام ١٩٨٩م، وقد كان تموز هو شهر اندلاع الانتفاضة فجعلت من هذا الشهر "تموز" أسطورة في بذل الدماء من أجل الوطن. وجعلتْه أيضا رمز العطاء والخير بالشهداء الذين ماتوا مقبلين غير مدبرين ورمز العطاء والخير لهذا الشعب. تقول الشاعرة عن هؤلاء الشباب[١]:

رسموا الطّريق إلى الحياةْ.
رصّفوه بالمرجان بالمهج الفتيّة بالعقيقْ
رفعوا القلوب على الأكفّ حجارةً جمرًا حريقْ.
رجموا بها وحش الطريقْ.
هذا أوان الشدّ فاشتدي !
ودوّى صوتهم
في مسمع الدنيا وأوغل في مدى الدنيا صداه
هذا أوان الشدّ !
واشتدتْ... وماتوا واقفين... متوهجين
متألقين على الطريق، مقبّلين فم الحياة!

(١) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٥٤٠.

تصف الشاعرة أفعال الشباب المجاهدين، بأنهم رسموا الطريق بأفعال بطولية، عرفوا الأمة العربية كيف يتحرر الوطن، وكيف تناضل الشعوب لنيل حريتها، لقد قدموا أرواحهم لبلدهم الغالي فلسطين، لم يبخلوا بالروح، فرشوا طريق التحرر بدمائهم الزكية. لقد رفعوا قلوبهم على أيديهم بدلا من الحجارة، ورجموا بها المغتصب المحتل، إنهم مثال التضحية، حين قاوموا المدفع بالحجر، وماتوا واقفين، فأناروا الطريق لمن سيأتي بعدهم، إنهم النجوم التي يهتدي بها السائرون في طريق الجهاد لأجل الحرية.

وفي المقطع الثاني تصور كيف مات هؤلاء الشباب، أما في المقطع الثالث فتقول[1] :

انظر إليهم في البعيد

يتصاعدون إلى الأعالي، في عيون الكون هم يتصاعدون

وعلى جبال من رعاف دمائهم

هم يصعدون ويصعدون ويصعدون

لن يمسك الموت الخؤون قلوبهم

فالبعث والفجر الجديد

رؤيا ترافقهم على درب الفداء

انظر إليهم في انتفاضتهم صقوراً يربطون

الأرض والوطن المقدس بالسماء

كان التركيز على صعودهم، الحسي والمعنوي؛ أما الحسي فإن أرواحهم تصعد إلى بارئها، وأما صعودهم المعنوي فهو صعود مكانتهم بين الناس وعند

(١) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٥٤٢.

الله تعالى. إن تكرار الجذر اللغوي "صعد" خمس مرات في هذا المقطع يشي بأن هذا الصعود كأنه مشاهد مرئي، خصوصا حين قالت: هم يصعدون ويصعدون ويصعدون، وكأن العين ترقبهم وهم في حالة من الصعود حاضرة ظاهرة لا تخطئها عين. ثم انظر كيف ختمت المقطع بأن هؤلاء الشباب صقور يربطون الأرض والوطن بالسماء، وهذا خيال جميل رسمته الشاعرة، ثم غالطت السامع فتناست الخيال ولفتت النظر إلى صعودهم ليربطوا الأرض بالسماء فصار السامع في خداع لطيف ظن أن هذا الأمر حقيقي، والشاعرة تغرق في هذا الخيال حين تقول: انظر إليهم... وكأن الشهداء صقور حقيقية، ومهمتها ربط الأرض بالسماء كما ادعت الشاعرة.

[٢-٣] نظرات فنية في غضب فدوى طوقان:

إن الناظر في شعر فدوى طوقان عمومًا وفي شعر الغضب عندها خصوصًا يلحظ ما يلي:

١- ميل الشاعرة إلى **السرد القصصي** في أغلب قصائدها، بل إنها أحيانًا تقسم القصيدة إلى مشاهد وأدوار تتداخل فيها الأصوات وتتعدد، مثلما نرى في قصيدة حمزة ضمن ديوانها (الليل والفرسان)؛ حيث تبدأ القصيدة بصوت الشاعرة وهي تسرد لنا قصة حمزة، ثم يتحول المشهد إلى حمزة الذي يخاطبها طالبًا منها الصمود وعدم الضعف، ثم يأتي دور الجندي الإسرائيلي الذي يأمرها ويأمر ابن عمها بترك الدار. وهكذا نجد الشاعرة تعتمد الحكي أو السرد أسلوبًا أدبيًا مميزًا لشعرها، وكأنها تروي قصة قومها، وتريد أن تحفظها الأجيال التي ستأتي بعدها، فتروي قصتها وقصة قومها للأطفال وللكبار معًا في هيئة أنشودة وطنية تجذب السامعين ليحدث التعاطف مع قضيتها.

٢- تكثر الشاعرة من **المقارنة بين الماضي والحاضر**؛ ففي الماضي كانت الشاعرة تنعم بالراحة والأمن والسعادة، وفي الحاضر هي مشتتة متعبة حزينة، وهي تتمنى أن يعود الماضي ولكن في المستقبل القريب لتنعم مرة أخرى بما كانت تنعم به، هذا على المستوى الفردي. ومثل ذلك نجده على مستوى الشعب، فهي تبين أن الناس كانوا قديمًا سعداء واليوم يعانون التشريد والقتل والتهجير والسجن بغير وجه حق.

٣- **الشاعرة رومانسية** من الدرجة الأولى في معانيها وألفاظها فالمعاني سيالة والألفاظ عذبة رقيقة وإن كانت هناك خشونة أحيانًا، كما في قصيدة (حرية شعب) حيث تنتمي هذه القصيدة إلى ديوان "الليل والفرسان" الذي صدر سنة ١٩٦٩م فهو أول ديوان بعد النكسة، وسقوط الضفة الغربية بيد الاحتلال سنة ١٩٦٧م فنراها تقول فيها[١] :

حريتي.. حريتي.. حريتي
صوت أردده بملء فم الغضب
تحت الرصاص وفي اللهب

حتى تثور محرضة الشعب على المقاومة والثورة لينشأ بركان غضب في كل مكان[٢] :

في الأرض في الجدران
في الأبواب في شرف المنازل،
في هيكل العذراء في المحراب

---

(١) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٤٢٧.
(٢) السابق: ص ٤٢٨.

في طرق المزارع في السجن

في زنزانة التعذيب في عود المشانق.

وتقول أيضًا في القصيدة نفسها:

صوت أردده بملء فم الغضب

تحت الرصاص وفي اللهب

وأظل رغم القيد أعدو خلفها

وأظل رغم الليل أقفو خطوها

وأظل محمولاً على مد الغضب.

٤- يلحظ في شعر فدوى طوقان ظاهرة تسمى: **الفراغ الطباعي:** وهي إحدى تقنيات التشكيل البصري، ويكون بوضع نقاط في أثناء حديثها، وأغلب ما يكون هذا الفراغ الطباعي في الذكريات، أو في وصف الواقع؛ وكأن الشاعرة حين تذكر أيام ماضيها الجميل تتنهد وتتحسر على ذاك الزمان فتغني النقاط عن الكلمات، ومصطلح الفراغ الطباعي مصطلح كان قد أشار إليه الدكتور مصطفى أبو طاحون في دراسته الشائقة عن الرافعي في رسالته للدكتوراه ومن أمثلة هذا الفراغ الطباعي قول الشاعرة في قصيدة إلى الوجه الذي ضاع في التيه [(١)]:

كنت أهذي

افتحي صدرك يا أرض الجدود

افتحي صدر الأمومة

واحضنيها فالقرابين غوالي

القرابين غوالي

---

(١) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٤١٢.

إنها سبحت سبحة في غلاء هذه القرابين وتذكرت حجم التضحية الواجب بذله حتى تتحرر الأوطان، وهناك كان وضع النقاط وضعًا موفقًا؛ لأنه طوى خلفه أسرارًا جمة. وفي القصيدة نفسها تقول:

وعلى الساحة طائر

خرق السهم جبينه

وعلى الأرض دخان وحطام

فلنتخيل طائرًا قُتل وهو مسالم، ولنتخيل الدخان والحطام، إنه مشهد ذاهل لا يحتاج إلى وصف تكفيه الإشارة، ولذا وضعت الشاعرة نقاطًا بدلاً من الكلام. وفي قصيدة الأغنية الوصية تصف قدوم الجندي المحتل[١] :

آتٍ وتدنيني خطاه

من زمن الكابوس والجحيم والصراع

...

حذاؤه يدق في الدهليز دمي يدق وعروقي والنخاع

....

٥- ثنائية اليأس والأمل، فاليأس يتضح في بدايات القصائد بل في عناوينها، والأمل يأتي خاتمًا أحيانًا قد يعقب على اليأس بالأمل، غير أن اللافت للنظر استيلاء العناوين المفيدة لليأس كقولها مثلاً في العنوان: أوهام في الزيتون – إلى الوجه الذي ضاع في التيه – أغنية صغيرة لليأس – الطاعون – الطرقات الأخيرة – إلى المغرد السجين... وغيرها.

**

(١) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، ص ٤٧٧.

الخاتمـــة

تَغيَّتْ هذه الدراسة بيان طبيعة الغضب عند النساء، وهل يشبه غضب الرجال؟ واستلزم ذلك فض الاشتباك بين مصطلحين هما: الغضب والعنف بعد أن عرَّفَتِ الغضب، وأكدتْ أن العنف درجة من درجاته؛ حين يفقد الغضبان سيطرته على نفسه. وأكدت هذه الدراسة أيضًا على أن الغضب عند النساء يختلف عنه عند الرجال؛ فهو عند النساء غضب مقاوم. وذكرت الدراسة محددات عدة انطلقت منها وهي: مفهوم الأدب النسوي. ثم: مفهوم الغضب بين الأدب وعلم النفس. ثم: فدوى طوقان والشعر الرومانسي. ثم التحول من الرومانسية إلى الشعر الوطني.

ثم ذكرت الدراسة أن الغضب عند فدوى طوقان يتخذ وسائل أخرى غير التي يعبر عنها الرجال، وقد اتخذ الغضب عند فدوى طوقان وسائل مختلفة تمثلت في: إحياء الروح الوطنية وحب الأرض في النفوس، وتذكر الماضي الجميل الذي يربطهم بالمكان، وبث الأمل في النفوس، والنهي عن اليأس قولاً وعملاً، والرغبة في بذل النفس لتحيا الأوطان، ورسم عالم المثل في داخل كل فلسطيني ليسعى لإيجاده في الواقع، والإشارة إلى تحقق بعض الأحلام رجاء تحقيقها في الواقع.

وتوصي هذه الدراسة بإبراز دور المرأة الأدبي في معالجة قضايا مجتمعهـــا وبخاصة القضايا المصيرية. وتوصي أيضا بالإشادة بالدور التربوي الذي تقوم به الأدبيات في تنشئة الأجيال القادمة على ثقافة المقاومة ولكن بصورة متعقلة.

والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين..

المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

١) طوقان، فدوى، أخي إبراهيم، يافا، فلسطين، المكتبة العصرية، ١٩٤٦م.
٢) طوقان، فدوى، وحدي مع الأيام، بيروت، دار النشر للجامعيين، ١٩٥٢م.
٣) طوقان، فدوى، وجدتها، بيروت، دار الآداب، ١٩٥٧م.
٤) طوقان، فدوى، أعطنا حبًّا، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٠م.
٥) طوقان، فدوى، أمام الباب المغلق، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٧م.
٦) طوقان، فدوى، الليل والفرسان، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٩م.
٧) طوقان، فدوى، على قمة الدنيا وحيدًا، بيروت، دار الآداب، ١٩٧٣م.
٨) طوقان، فدوى، رحلة صعبة (رحلة جبلية)، عمان، دار الشروق، ١٩٨٥م.
٩) طوقان، فدوى، تموز والشيء الآخر، عمان، دار الشروق، ١٩٨٩م.
١٠) طوقان، فدوى، الرحلة الأصعب، عمان، دار الشروق، ١٩٩٣م.
١١) طوقان، فدوى، اللحن الأخير، عمان، دار الشروق، ٢٠٠١م.

ثانيا: المراجع:

١) أبادي ليلى، أصل ركن، ٢٠٢١م، المقاومة وعناصرها في شعر فدوى طوقان وطاهرة صفار زادة- دراسة مقارنة بين الأدب المقاوم الفلسطيني والإيراني، ع١١، مجلة الميدان للدراسات الرياضية والاجتماعية والإنسانية، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، ع١١.
٢) ابن برد، بشار، ديوان بشار بن برد، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، ط١، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.
٣) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٨م.

٤) أحمد، خالد جودة، قراءات في قاموس الغضب [كلمة «لا» في الأدب العربي] مقالة على الشبكة الدولية (الإنترنت) من مدونة الكاتب: http://khaled-gouda.blogspot.com/٢٠١٠/٠٦/blog-post_٠١.html.
٥) بن شوية، أوريدة، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م، تفاعل الشاعر والواقع في شعر فدوى طوقان: دراسة لنماذج مختارة، رسالة ماجستير مقدمة لقسم الأدب واللغة العربية بكلية الآداب واللغات في جامعة محمد خيضر بسكرة.
٦) التميمي، أمجد، الأدب النسوي في فلسطين بين مطرقة الموروث الذكوري وقلة الدعم الرسمي والتهميش، مقال منشور على الشبكة الدولية (الإنترنت): https://www.facebook.com/notes/١٢٢٨٤٤١٦١٠٨٥٥٤٣/
٧) توفيق، أشرف، اعترافات نساء أديبات، ط١، القاهرة، دار الأمين، ١٩٩٨م.
٨) الجندي، أنور، أدب المرأة العربية، القاهرة، مطبعة الرسالة، د.ت.
٩) حيدري، محمود، ١٤٣٤هـ، الرؤية الأنثوية في الخطاب الشعري: دراسة مقارنة بين فدوى طوقان وفروغ فرخزاد، مجلة اللغة العربية وآدابها، ع٤.
١٠) الخطيب، حسام، ١٩٧٥م، حول الرواية النسائية في سورية، مجلة المعرفة، ع١٦٦ كانون الأول.
١١) درويش، سمية، ١٩٩٤م، الطاقة المبدعة هوية، مجلة الكاتبة، إلكترونية، ع٢.
١٢) الزوزني، الحسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، تقديم: عبد الرحمن المصطاوي، ط٢، بيروت، لبنان، دار المعرفة، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
١٣) سعيد، محمد، الأدب النسوي الفلسطيني ودوره في قضية التحرر، مقال منشور على الشبكة الدولية (الإنترنت) من موقع فلسطيننا: https://www.falestinona.com/OurPalWebSite/ArticleDetails.aspx?ArticleId=٥٧٧٦٦.

١٤) سمية، خليل، وهنية، مشقوق، ٢٠١١م، الأدب النسوي بين المركزية والتهميش، في مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ع٢.
١٥) السيوف، نبيلة فايز، ٢٠٠٢م، قضايا المرأة بين الصمت والكلام في الرواية العربية، رسالة ماجستير بالجامعة الأردنية.
١٦) شوقي، أحمد، الموسوعة الشوقية: الأعمال الكاملة لأمير الشعراء أحمد شوقي، جمع وترتيب وشرح: إبراهيم الإبياري، ط١، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
١٧) عصفور، جابر، دفاعًا عن المرأة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م.
١٨) كرام، زهور، السرد النسائي العربي، مقاربة في المفهوم والخطاب، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٤م.
١٩) مجمع اللغة العربية، معجم علم النفس والتربية، ١٩٨٤م، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
٢٠) المرزباني، محمد بن عمران، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.
٢١) معمري، أحلام، ٢٠١١م، إشكالية الأدب النسوي بين المصطلح واللغة، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ع٢.
٢٢) مهري، رقية، ١٤٣٢هـ، فلسطين وتجلياتها في شعر فدوى طوقان المقاوم، مجلة فصلية دراسات الأدب المعاصر، جامعة آراد الإسلامية، كرمان، ع١٠.
٢٣) النعيمي، أنس حسام، انتفاضة الأقصى في شعر النساء، القاهرة، مركز الإعلام العربي، ٢٠٠٦م،.
٢٤) هنية، بوضياف، ٢٠١١م، كتابة الأنثى/ أنوثة الكتابة: أحلام مستغانمي أنموذجا، مجلة جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.

ملخص الدراسة:

اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وهدفت إلى الوقوف على أبرز سمات الغضب في شعر فدوى طوقان بالنظر إليه صادرًا من أنثى ومختلفًا، في طبيعته، عن غضب الرجل. وقد مهّدت الدراسة بالحديث عن مفهوم الأدب النسوي، ومعنى الغضب بين علم النفس والأدب، وتحولات شعر فدوى طوقان؛ ثم فصّلت القول في وسائل التعبير عن الغضب في شعر الشاعرة، وأبرز ملامحه الفنية. وقد أجابت الدراسة عن سؤالها الأساس حين انتهت إلى أن غضب النساء مختلف عن غضب الرجال؛ حيث ارتدى، في شعر طوقان، لباس المقاوم الذي ناضل من أجل إحياء الروح الوطنية وحب الأرض في النفوس، وتذكر الماضي الجميل المرتبط بالمكان، وبث الأمل وطرد اليأس، والتضحية من أجل الوطن.

الكلمات المفتاحية: فدوى طوقان. الغضب. المقاومة. الأدب النسوي. فلسطين.

Soft Anger – A Reading of Fadwa Tuqan's Poetry

Summary:

The study adopted the descriptive and analytical approach, and aimed to identify the most prominent features of anger in Fadwa Tuqan's poetry by considering it coming from a female and different, in nature, from a man's anger. The study began by talking about the concept of feminist literature, the meaning of anger between psychology and literature, and the transformations of Toukan's poetry. Then I detailed the means of expressing anger in the poet's poetry, and its most prominent creative features. The study answered its basic question when it concluded that women's anger is different from men's anger. In Toukan's poetry, it wore the dress of a resistance fighter who fought to revive the national spirit and love of the land in souls, remember the beautiful past associated with the place, spread hope and expel despair, and sacrifice for the sake of the homeland.

Keywords: Fadwa Tuqan. Anger. Resistance. Feminist literature. Palestine.

* * *